جدل أندلسية ابن حزم وحزمية الأندلس

عتـوتي زهية

جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم

مقدمة :

لأن المفكر ابن بيئته ووليد يومياته، يتفاعل مع راهنيته ويسائل واقعه برمته، يستطلع أفاقه على امتداد أبعاد شخصيته فحتى عندما يدعي العزلة لن يظفر بالبعد عن تاريخانيته.

إن الإطار الحضاري الذي ينشأ فيه هذا الفكر يملي روافده ويحدد تشكيلته في هذه البنية والشبكة النفسية العميقة، وقدر المفكر أن يكون مرآة عاكسة للحظة التاريخية في جدلية ملتحمة ومتشابكة، عبثا ننجح في تحديد أين نموقع الخط الفاصل بين هذا التعايش الذي تتشكل فيه البيئة الفكرية على ضوء أفقي الزمان والمكان حيث يتلاقح ويتفاعل ما ينتج من مشاريع.

انطلاقا من هذه القناعة حاولنا أن نستوعب ابن حزم بالعودة إلى ما ميز الأندلس على امتداد تلك الفترة بخصوصياتها وحيثياتها عبر نواحي ومجالات متعددة عاشها مفكرنا وشكلت إطارا تولدت عبره أفكاره وأفرزت قناعاته المتعددة بتوجيه منهجي إعتقد أنه الكفيل بالخلاص مما ألم بالمسلمين وفكك وحدتهم بعد قوة. هذا التوجه برز عبر شبكة المفاهيم الأساسية التي شكلت النظام الفكري الحزمي.

إن بعد المكان قد ظهرت معالمه في فكر ابن حزم، فضلا عن تميز الفترة الزمنية على أكثر من صعيد يحيلنا هذا إلى الالتفاتة التالية:

بلاد الأندلس هي اليوم دولتا إسبانيا والبرتغال، أو ما يسمى بشبه الجزيرة الايبرية وأصل التسمية يعود إلى القبائل التي عاشت فيها فترة من الزمن، وهي «قبائل الفندال أو الوندال باللغة العربية، فسميت هذه البلاد بفاندالسيا على اسم القبائل التي كانت تعيش فيها ومع الأيام حرف إلى أندوليسيا فأندلس»[1] وبعد أن خرجت هذه القبائل حكمت الأندلس قبائل أخرى من النصارى عرفوا باسم قبائل القوط الذين ظلوا يحكمون المنطقة حتى قدوم المسلمين إليها حيث تحقق الفتح 92هـ في ظل الخلافة الأموية وتحديدا في خلافة الوليد بن عبد الملك (86هـ 96هـ).

لقد عرفت الأندلس أوج قوتها مع حكم الناصر وابنه المستنصر، فالاستقرار السياسي الذي استتب في شبه الجزيرة الأندلسية انعكس على مجريات الحياة العامة، فاعتبرت فردوس العالم الإسلامي وقبلة الخاصة والعامة، تنافس الجميع في زيارتها والتودد إلى حكامها لما عرفت به من تفرد ميزها عن غيرها من الحواضر «إذ تركيبها البشري وموقعها الجغرافي وجذورها وأصولها وظروف حكمها ومؤسساتها ودرجة حريتها وتفاعلها وتصادمها مع أوروبا كل ذلك ميزها بصفات متفردة»[2] هذه الخصائص التي ميزت الأندلس تكاملت مع رعاية سياسية لمجريات الحياة العلمية والثقافية فبرز تفوق مشهود حرك دوالبه الخليفة المستنصر وفاءا لسياسة الأب.

إن الأندلس عرفت في هذه الآونة توجها سياسيا رشيدا لتجلة العلم وتبجيل العلماء برز من خلال جمع المؤلفات والتشجيع على الترجمات فكانت حركة علمية شبيهة بحركة المأمون في المشرق وأصبحت قرطبة عاصمة للفكر خاصة مع زيادة السخاء المادي وارتفاع المكافآت التي جذبت أفضل وأرقى المواهب «إن الترجمة أصبحت مهنة مربحة فقد كان الدفع يقدر بخمسمائة دينار شهريا للعمل وقتا كاملا في الترجمة، كان الدنيار يومها يساوي 4.25 غرام من ذهب يكاد يكون صافيا، بعبارة أخرى المرتب الشهري 2125 غ ذهبا.. وهذا يساوي 24.000 دولار أمريكي»[3] هذا يدل على قيمة التشجيع الذي أولاه الحكام للاستثمار في الرأسمال البشري، فانتشرت الثقافة وكثر الإنتاج العلمي وشاعت المعرفة.

لكن هذا التداخل السياسي العلمي الراقي سرعان ما سيتفكك بوفاة المستنصر وتولي الخلافة ابنه هشام 366هـ وعلى اعتبار أن عمره كان لا يزيد عن 11 سنة فقد اعتبر هذا خللا في الدولة وإيذانا بسقوطها وكحل عين محمد بن أبي عامر وصيا عليه* والذي أسس الدولة العامرية في الأندلس التي كانت تدير شؤون الحكم من وراء ستار الخلافة الأموية. لقد عاصر ابن حزم (384هـ-994م/ 456هـ- 1064م)

هذه الفترة وعاش أجواء الرخاء بين قصري الزهراء والزاهرة في قرطبة قريبا من مجالس العلم والعلماء وفي حضرة كبار رجال الدول، حيث استوزر والده عند المنصور بن أبي عامر. ما يمكن أن توصف به هذه الحقبة أنها وإن سعت إلى نشر الأمن داخليا وحماية الثغور من الهجمات الخارجية إلا أن الدعم السياسي للعلم قد انقلب لصالح العامة واسترضاء الفقهاء ولا يخفي ما وراء هذه المبادرة من مكاسب سياسية يسعى إلى تحقيقها «وعمد أول تغلبه عليه إلى خزائن أبيه الحكم الجامعة للكتب المذكورة وغيرها وأبرز ما فيها من ضروب التواليف بمحضر خواصه من أهل العلم بالدين وأمرهم بإخراج ما في جملتها من كتب العلوم القديمة المؤلفة في المنطق وعلم النجوم»[4] ويقصد بذلك الكتب التي جمعها المستنصر وشجع على ترجمتها ما ذكر من بيت مال المسلمين في ظل عجز الخليفة هشام بن الحكم صغيرا وعزوفه عن الحكم راشدا. إذن فمن خلف ستار الخلافة الأموية ظل الحاجب المنصور يحكم الأندلس إبتداء من 366هـ-976م وحتى وفاته سنة 392هـ -1002م) وإن صار على نهجه ابنه عبد الملك بن المنصور فإن الأوضاع ستنفلت في ظل أخيه عبد الرحمن بن المنصور الذي لم يكن مؤهلا لإدارة البلاد من جهة ولأنه كذلك قام بعمل لم يعهد من قبل عند العامريين وهو أنه أجبر الخليفة هشام بن الحكم في أن يجعله وليا للعهد من بعده، فكانت ثائرة الأمويين وغضب العامة أدى إلى مقتله «إشتعلت الثورات في الأندلس، فكأن مقتل عبد الرحمن بن المنصور واشتعال الفتن والثورات كان بميعاد، فمنذ أن قتل عبد الرحمن بن المنصور العامري انفرط العقد تماما في البلاد، وبدأت الثورات تكثر والمكائد تتوالى، وبدأت البلاد تقسم»[5] بهذا ستشهد الأندلس تقلبا سياسيا انتقل من خلافة أموية إلى مرحلة عامرية والتي بسقوطها ستعيش المنطقة في كنف فتنة ملوك الطوائف * وصراعهم وتعتبر بالمقابل المرحلة الثانية والنقلة الموالية التي عاشها مفكرنا، هذه الفترة من أصعب فترات التاريخ الأندلسي وأكثرها تعقيدا وتشابكا.

هذا التقلب السياسي سيؤثر في مناحي الحياة عامة وسيكون من عوامل ترحال مفكرنا،

وبطبيعة الحال ستتأثر الحالة الاقتصادية بهذا الاضطراب، وسيعمد الحكام إلى ملئ الخزينة بإرهاق العامة من خلال زيادة في منسوب الضرائب «أما الحياة الاقتصادية فقد انطبعت بسمة التقلب وعدم الاستقرار والذي طبع الحياة السياسية، هذا فضلا عن الثروة التي كان أغلبها ثروة جبائية مصدرها موارد الدولة التي كانت تجمع لتستهلك، لذا تمركزت الأموال والثروات في يد الفئات الجابية ومن يدور في فلكها»[6] يلاحظ إذن أن الضعف السياسي وحالة التفكك المذكورة قد طبعت بدورها مجريات الحياة اليومية في شتى الأصعدة، كما أن حالة اللاأمن التي عرفتها شبه الجزيرة الأندلسية، سيصفها ابن حزم، ناقما ومعنفا بعدما انقلبت الأحوال من ثراء ورخاء مس العامة إلى حالة من الخوف والقهر: « فقد كان جنود الفتنة الطائفية لا يتورعون عن شن الغازات على الناس الآمنين والاستيلاء على أموالهم بالقوة وقطع الطريق على مصالحهم وضرب الجزية على رقابهم»[7] كل هذا أصبح يصب في خدمة الفئة التي أصبحت تستأثر بالكماليات وتتنافس في حياة البذخ والترف وتحرك التجارة التي كانت تجارة السلطان وحاشيته. أما عن مجريات الحياة الثقافية في عصر التفكك، فقد كان التنافس السياسي عاملا في بعث تنافس علمي بين هذا الدويلات، فإذا سلمنا منذ البداية أن الشعور بالشخصية الأندلسية كان عاملا مساعدا على التميز في مواجهة أوروبا النصرانية من جهة وكذلك في مواجهة المشرق ومحاولة افتكاك الصدارة الفكرية والعلمية بجعل مدنهم قبلة العلماء، ومن هنا فقد اجتهد حكام الأندلس في أن يكون لقصورهم مجد أدبي يحاكي ما كان القصور خلفاء المشرق.

أما فقهيا فقد كانت السيطرة للمذهب المالكي، باعتباره أساس الفكر التشريعي في العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لدرجة يعتقد د.عبد الحليم عويس: «أن الخروج عليه يبدو وأنه خروج على الإسلام نفسه، فمع أن سيطرة مذهب مالك قد أضفى لونا من الثبات الفكري والعاطفي في الأندلس إلا أنه كبل حركة العقل الأندلسي .

وأعطى فقهاء المالكية لونا من الامتياز الطبقي»[8] على الرغم من أن الولاء للمذهب كان ييسر سبل القضاء وتولى مناصب إدارية وسياسية أخرى إلا أن الكثير من الدراسات تؤكد أن المد العلمي كان أكبر من أن يعترض أو يحال دون صيرورته، في هذا السياق فإن المستشرق أنخل جالث فالنثيا يحد من هذه السيطرة الفقهية ويعتقد أنهم لم يستطيعوا اعتراض طريق الحركة العلمية التي عظم كذلك نشاطها في عصر ملوك الطوائف بعدما غذتها الخصومات وقواها التنافس ويتفق معه حسان محمد حسان في هذا التوجه إلى اعتبار أن الفرقة السياسية كانت نعمة معرفية «إن التفكك السياسي بعد الوحدة التي صنعتها قرطبة الأموية كان من أزهى عصور الإسلام في اسبانيا

حيث أخذ التراث الأندلسي يؤتى إليه في النثر والأدب والعمارة والفنون العقلية والنقلية»[9] يلاحظ إذن أن الفاعلية العلمية أم تفتر بل تواصلت حلقاتها رغم تقلبات الشأن السياسي التي عاشتها الأندلس.

ابن حزم من الطموح السياسي إلى التوجه العلمي:

يعتبر ابن حزم من أفذاذ العلماء المعدودين في تاريخ الأندلس، بما حفل به إنتاجه في أكثر من ميدان إذ يعتبر «شاعرا، مؤرخا قانونيا، فليسوفا ومتكلما أندلسيا، أحد كبار عقول الحضارة العربية الإسلامية»[10] وإن تفتح على وجاهة الحياة الارستقراطية في القصر أين اشتغل والده وزيرا، فهذا لم يثن من رغبته في العلم والتعلم حتى فاق أقرانه «كان أبوه وزير الحاجب المنصور ووراء ابنه المظفر بعده والمدبر لولايتهما، وكان ابنه الفقيه أبو محمد وزير لعبد الرحمن المستظهر بالله، ثم هشام المقتدر بالله، وأوغل بعد هذا في الاستكثار من علم الشريعة حتى نال منها ما لم ينله أحد قط قبله بالأندلس»[11] وبهذه الشهادة على ما ألم به ابن حزم من العلوم وما ظفر به من مرتبة، وفيها كذلك إشارة إلى المكانة السياسية التي عاشها في كنف والده والتي مارسها أيضا بحكم الوزارة، غير أن ما يمكن ملاحظته أن التنشئة السياسية التي عاشها مفكرنا ستترك معالمها في شخصيته على أكثر من صعيد، فقد تجرع مرارة ولاء العائلة السياسي حينما سقطت الدولة العامرية وتقلبت الأحوال، فتبدلت الأوضاع وخربت الديار، إنه يصف هذه الضائقة قائلا: «أنت تعلم أن ذهني متقلب وبالي مبصر بما نحن فيه من بنو الديار والجلاء عن الأوطان وتغير الزمان وذهاب الوفر والخروج عن الطارف والتالد واقتطاع مكاسب الآباء والأجداد والغربة في البلاد وذهاب المال والجاه»[12] إن هذا التشخيص لحالة الألم التي عاشها ابن حزم ناتجة عن انتقاله بين طرفي نقيض من حال لأخرى، من حياة ارستقراطية نعم فيها بالعز والرخاء إلى تبعات حال الفتنة التي ألمت بالأندلس.

فخلال الفترة التي عاشها ابن حزم ولي الأندلس خمسة خلفاء، هشام المؤيد، المستعين، الظافر والمستظهر والمستكفى والمعتمد وعاصر هؤلاء الخلفاء اثنين وعشرين دولة كان النزاع بينهم محتدما ولما تولى هشام المؤيد الخلافة انهالت على بيت آل حزم النكبات والصدمات وحين تغلب البربر على قرطبة خرج عنها 404 هـ إلى المرية وقد وصف حال المدينة قائلا: «وقفت على أطلال منازلنا بحومة بلاط مغيث من الأرباض الغربية ومنازل البرابر المستباحة عند معاودة قرطبة، فرأيتها قد محت رسومها وطمست أعلامها وخفيت معاهدها وغيرها البلى، فصارت صحاري مجدبة العمران وفيافي موحشة بعد الأنس وأكما مشوهة بعد الحسن»[13] أمام حال كهذه لم يقف ابن حزم موقفا حياديا في هذا الصراع بل ناصر الحزب الأموي وعمل بعث مجدهم، برر البعض هذا التوجه أنه انتصار عرقي قديم*، بينما من الإنصاف أن نفهم هذا المفكر في محاولة جاهدة لبعث حقبة مشرفة في تاريخ الأندلس عرفت مع الخلافة الأموية في الأندلس أوج قوتها.فمنذ توفي والده أخذ ابن حزم على عاتقه الدفاع عن الأسرة الأموية ضد البربر، فرحل عن قرطبة إلى مرية حيث راح يعمل على توحيد الصفوف من أجل استعادة العرش الأموي المفقود، وقد تنبه له حاكمها ، فسجنه ثم نفاه ولم يلبث مفكرنا أن وجد نفسه مضطرا إلى التوجه نحو مدينة بلنسية وهناك التقى بالمرتضى الأموي وحارب في جيشه بغرناطة ثم وقع بأيدي أعدائه سنة 403هـ ولم يتمكن ابن حزم من العودة إلى قرطبة إلا سنة 409هـ حتى إذا ولى صديقه عبد الرحمن المستظهر الخلافة في 414هـ عين المستظهر ابن حزم وزيرا لكنه لم يستمر في المنصب إلا شهرا ونصف إثر اغتيال الخليفة، بعدها سجن ابن حزم ثم عفى عنه وعاد إلى الوزارة أيام هشام المعتمد بالله، فيما بين سنتي 418هـ –422هـ لكنه لم يلبث أن ترك المناصب الوزارية واعتزل السياسة بعد كل هذه المحاولات في استعادة مجد أموي تليد «غامر فيه بنفسه وصارح فيه برأيه وسيفه وإذا كان نشاطا انتهى بالفشل لأن الحركة الأموية التي وضع نفسه في خدمتها وأخذ نفسه بمؤازتها كانت حركة مقضيا عليها بالفشل»[14] إنها دعوة لنا في أن نتأمل في شخصية هذا المفكر رمز المثقف الذي يسعى إلى واقع أفضل اقتنع بجدواه أمام تفكك الخلافة إلى دويلات حتى لو كان الثمن مغامرة مهددة فيها حياته في كل لحظة «حسبنا من الرجل أن بتوفر له ما نسميه الآن بالشجاعة الأدبية ونرفعه في تاريخنا العقلي إلى أسمى ذروة ونجعله مثالا عاليا وهاجا نبصر به الناشئة الذي ما يزال الفساد الاجتماعي الذي يسود حياتنا يأخذهم في كل وقت باصطناع المسامحة والمساهمة والمجاملة والمجاراة والمسايرة»[15] فكان فعلا مدافعا عن قناعاته بحد السيف والقلم، لكن مع سقوط الدولة الأموية وانتهاء المشروع في استعادة مجددها، انحصرت آمال مفكرنا وأنهى نشاطه السياسي مفارقا ومعتزلا كل جبهاته وبدأ عهدا كرس نفسه فيه للعلم والتأليف.

لقد عاش هذا المفكر حياة زاخرة بالمحن والمصائب فما هادنها ولا هادنته وحينما أحرق المعتمد كتب ابن حزم علانية في اشبيلية كما أحرقت من قلبه كتب ابن مسرة وستحرق من بعد كتب ابن رشد وكأنها عادة أندلسية انفردت بها الأندلس بين بلاد الإسلام جميعا قال أبياته المشهورة.

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي تضمنه القرطاس بل هو في صدري

يسير معي حيث استقلت ركابي وينزل إن انزل ويدفن في قبري

وفي شموخ واستقلالية الشخصية يعترف بلا مبالاته في مجاراة الغير «وإني لا أبالي فيما أعتقده حقا عن مخالفة من خالفته ولو أنهم جميع من على ظهر الأرض، وإني لا أبالي موافقة أهل بلادي في كثير من زيهم الذي تعودوه لغير معنى، فهذه الخصلة عني من أكبر فضائلي التي لا مثيل لها»[16] إن بعد الاستقلالية هو ما تصفه بعض الدراسات لسيرة ابن حزم بجهله لسياسة العلم لكنها في الواقع تعكس صراحته في مواجهة أعدائه ولأنه لم يكن يحسن المجاملة أو الرياء فوصف لسانه بأنه أمضى من سيف الحجاج.

سينتهي المطاف إذن بابن حزم إلى حياة من العزلة بتربة بلده في بادية لبلة مدرسا ومؤلفا «يبث علمه في من ينتابه ببباديته تلك من عامة المقتبسين فيه، من أصاغر الطلبة الذي لا يخشون فيه الملامة، يحدثهم ويفقههم ويدارسهم ولا يدع المثابرة على العلم والمواظبة على التأليف، والإكثار من التصنيف»[17] فلم يكن أول ولا أخر المفكرين الذين انتدب لنفسه مكانا، يراجع فيه استراتيجياته ويحين دفاعاته، يكفي أن نذكر أن عددا هاما من مؤلفاته عرفت النور في هذه الفترة.

ما يلاحظ على حياة ونشأة ابن حزم أنه صورة مصغرة في انسجامها وتباعدها، إن تألقه ثم نفيه ووفاته شريط مكثف لما ما جرى في الأندلس، حينما احترقت الأندلس كانت كتبه تحترق وحينما تآلفت أرباضها في عهد المرابطين والموحدين بعثت كتبه وتقوى منهجه. ما نعتقده من خلال هذا المسار عبر نضال سياسي بلغة العصر إلى نضال علمي وفكري لا يمكن أن يحسب نوعا من الهزيمة التي أبانت ضعف المواجهة بقدر ما تحدده الدراسة أنه استشراف لعمق الإشكالية، فما لم يغيره السلاح نحن بحاجة إلى أن نغيره في بنية هذا الفكر وتوجهه، وربما سر تكوينه عاجز عن أن يسير بالسياسة نحو أفقها ويحدد غايتها فلابد من تشخيص الداء وتفصيل البديل.

إن تمثل الأندلس بصراعاتها وتناقضاتها سيكون منازلة فكرية على صعيد تبني المنهج الذي سيدافع عنه ابن حزم أكثر من كونه مذهبا فقهيا أريد به مخالفة غيره.

لقد عمد مفكرنا مفتشا بين المذاهب، مقلبا على أوجه الصحة إلى أن اختار نهجه، إنه نجاح من حيث أنه يبغي بلوغ عمق وتأصيل سبب الصراع في فكرنا وفي منظومة قيمنا ولعل هذا سر إعجاب الجابري بابن حزم وتدشينه اللحظة الحزمية بداية لتحرك مدرسة في الغرب الإسلامي « درج الناس إلى النظر إلى ابن حزم كمجرد فقيه ظاهري ساجل، حاد المزاج وإذا أضيف عنصر أخر إلى شخصيته الثقافية فالغالب ما يبرز تحليله الدقيق لسلوك المحبين الذي ضمنته رسالته الشهيرة طوق الحمامة، والواقع أن اختزال فكر ابن حزم بهذا الشكل ينطوي على تعتيم ظالم لواحد من أكبر المجددين في العالم العربي الإسلامي»[18] إن معالم هذا التجديد، ستكون منهجية بالأساس وهذا يحيلنا إلى محاولة تقصي هذه الأبعاد من خلال اختيار الظاهرية منهجا.

المذهب الظاهري:

يعرفه ابن خلدون أنه المذهب الذي أنكر القياس «فقد أنكر القياس طائفة من العلماء وأبطلوا العمل به وهم الظاهرية ، وجعلوا المدارك منحصرة في النصوص والإجماع وكان إمام هذا المذهب داود بن علي وابنه وأصحابهما»[19] ويعتبره مذهبا مخالفا للجمهور وأنه من أهل البدع «ربما يعكف كثير من الطالبين مما تكلف بانتحال مذهبهم على تلك الكتب يروم أخذ فقههم منها ومذهبهم فلا يخلو بطائل ويصير الى مخالفة الجمهور وانكارهم عليه وربما عد بهذه النحلة من أهل البدع بنقله العلم من الكتب من غير مفتاح المعلمين». [20] نستخلص من هنا الموقف الذي يستعرضه ابن خلدون جملة من المواصفات لظاهرية ابن حزم أولها بعد الاجتهاد وتميز الفهم فيها عن تقليد من ينسب إليه المذهب في المشرق وثانيها حدود الطرح الذي تم عبره تلقى المذهب بل وممارسة نوع من الحصار الفكري بشأنه، تمييز ذلك سيحيلنا الى تتبع مراحل نشأة المذهب.

الظاهرية المشرقية:

ينسب هذا المذهب الى الإمام الفقيه داود بن علي بن خلف الأصبهاني الأصل، الكوفي المولد، البغدادي الدار الشهير بالداود الظاهري المتوفي 270هـ وإنما عرف بالظاهري لأنه أول من أظهر القول بظاهرية الشريعة والاعتماد على ظواهر النصوص من الكتاب والسنة « والاتجاه الى الظاهر معناه الوقوف عند حدود الألفاظ التي وردت من الشارع، دون عناية بالبحث عن عللها ومقاصدها»[21] عبر هذا المستقر المذهبي سينتقل داود من الفقه الشافعي الى الاخذ بالظاهر وسينحرف عن التعامل مع مصادر الشريعة .

المدرسة الظاهرية بالأندلس:

تتفق العديد من المصادر أن المؤسس الأول لمدرسة الفقه الظاهري بالاندلس هو عبد الله بن قاسم بن هلال القبسي المتوفي 272هـ كان مالكيا بحكم البيئة والنشأة ولكنه ما لبث أن رحل الى المشرق ودخل العراق ونقل كتب داود بن علي الأصبهاني وعمل على نشرها بالأندلس إذن فقد انتقل هذا المذهب إلى الأندلس «عن طريق طائفة من علماء قرطبة سافرت إلى المشرق في القرن الثالث الهجري، إلتقى بعضهم بأحمد وداود بن خلف»[22]. غيرأن الحديث عن الظاهرية في هذه البلاد يرتبط بابن حزم الذي إنتحل مذهب أهل الظاهر وخرج به عن المألوف في أوطانه في زمان كان فيه أهل الأندلس على كتب الفروع وتقليد المذاهب، ففي خضم حمى التقليد المذهبي والعصبية ظهر ابن حزم حاملا لواء الدفاع عن السنة واعادة الإعتبار للنصوص.

بهذا فقد عزز مفكرنا التوجه إلى الوقوف عند الألفاظ التي وردت من الشارع دون العناية بالبحث عن العلل والمقاصد وبذلك فقد دافع عن وجوب العمل بالظاهر وحارب جواز تأويل الألفاظ إذ يقول:

وخذ ظاهر الألفاظ لا تتعدها الى غاية التأويل تبق مؤبدا

فتأويلها تحريفها عن مكانها ومن حرف الألفاظ حاد عن الهدى

وهنا يتضح الفرق بين معنى الدلالة الظاهرة ومعناها المؤول ان هذا البعد الظاهري يستجلى بوضوح في كلام ابن حزم عن نصوص القرآن الكريم التي تضمنت أوامرا ونواهي تأكيدا لظاهرية داود بن على التي جنح صاحبها إلى القول بأن الأوامر في القرآن والسنة تفيد الوجوب والنواهي تفيد التحريم حتى يقوم الدليل من الكتاب أو السنة بصرف الأوامر والنواهي إلى الاستحباب أو الكراهة أوالإباحة فيقول:

«في الأوامر والنواهي الواردة في القرآن وكلام النبي (ص) الأخذ بظاهرها وحملها على الوجوب والفور وبطلان قول من صرف شيئا من ذلك الى التأويل والندب أو الوقف بلا برهان ولا دليل»[23] أما من ترك ظاهر الألفاظ وطلب معاني غير واردة في لفظ الوحى، فيصفه ابن حزم أنه قد افترى على الله تعالى. إن العدول عن الظاهر لابد ان يستند إلى برهان وبراهين إحالة النص عنده هي نصوص القرآن والسنة، فإذا عدمت أمكن الاستدلال بالاجماع ولا يعتد ابن حزم إلا بإجماع الصحابة. وسيسقط مبدأ الكثرة، فلا حجة في الكثرة، فإن خالف واحد من العلماء جماعة فلا عتبار عنده لعدد العلماء الذين اتفقوا حول خلاف ذلك وهذا ما سيزيد من خصومه واعدائه «فمبدأ عدم حجية الكثرة والمجتهد المخطئ أفضل عند الله من المقلد المصيب، وفتح باب الإجتهاد لكل المسلمين ورفض تقليد أحد ولو كان صحابيا كل ذلك به كثير من الجرأة والرفض والتجاوز، ضرب المذهب الظاهري قواعدا استقرت في نفوس المسلمين فأثار سخط سائر الفقهاء».[24]

بذلك تحمل الظاهرية مؤشرات للثورة والتمرد على ما كان معروفا لدى المسلمين ومنتشرا بالأندلس وموقف ابن حزم من الرأي تأكيدا لذلك إذ يحيلنا في النبذ الى هذا التصور:«ولا يحل لأحد الحكم بالرأي» ويستشهد في ذلك بجمله من الآيات "ما فرطنا من الكتاب في شيئ" وقوله تعالى:"يأيها الذين أمنوا أطيعوا الله وأطبوا الرسول وأولى الأمر منكم، فإن تناتزعتم في شيئ فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر» نستنتج إذن إن ابن حزم قد أبطل العمل بالرأي والقياس وتوقف عند حدود المصادر النصية وإجماع الصحابة، فهل يتعلق الأمر إذن بمذهب ظاهري صلب

ومتحجر يبطل مصادر الاجتهاد العقلية التي رافقت المذاهب المذكورة وبالتالي تسقط خاصية التجديد عند هذا المفكر أم أنه منهج ظاهري أسقطه مفكرنا في أكثر من ميدان يطاله بحثه سواء تعلق الأمر بالتاريخ العام وتاريخ الأديان، والسيرة والتراجم والعقائد والأديان المقارنة والاجتماع واللغة والأدب، بل حتى في تعاملا ته الشخصية؟*

يفهم البعض أن ابن حزم بإبطاله للتأويل والاجتهاد كان متخلفا وجامدا ما دام منطلقه الأول والأخير عدم العدول عن الظاهر ونفى القياس وتحريم التأويل وإعمال النظر في فهم النص «أهل الظاهر الجامدون على نصوص الشرع بالحرف غير ناظرين إلى مقاصدها وعللها، فإذا لم يجدوا نصا قالوا:لا ندري وأحجموا عن الفتوى زاعمين أن مذهب الكوفيين فلسفة فارسية صبرت الفقه الذي هو شرع وقالوا إننا إلى المعنى أو العلل صرنا مشرعين بفكرنا ولزم انحلال الشريعة».[25]

في اعتقادنا أن هذا الموقف ينطبق أكثر على الظاهريين من أتباع المذهب، وتاريخ الفكر عبر مختلف حقبه يظهر لنا كم شوه التلاميذ فكر الأستاذ اعتقادا منهم أنهم بتطرفهم وتعصبهم يعلنون ولاءهم وحفظهم لمرتبته وهذا ما استمر ويستمر مع ظاهريين معاصرين يحجرون على الفكر ويقفون عند ظاهر النصوص بما يناقض حفظ الكليات ويتجاوز أبعاد التاريخانية. الواقع أن إبطال الرأي لم يكن تنصيبا لعداء ضد العقل، فالنصوص الحزمية عامرة بهذا التوجه، بل أنه طبق هذا في فقه الفروع نظرا لأنه عاين تحالف بعض الفقهاء والحكام لتبرير أحكام وإباحة محرمات من خلال

تحريف النصوص عن دلالاتها وهذا الموقف من ابن حزم نجده عند الذهبي« وكان قد مهد أولا في الآداب والأخبار والشعر وفي المنطق وأجزاء الفلسفة، فأثرت فيه تأثير ليته سلم من ذلك فإنه رأس في علوم الإسلام، متبحر في النقل عديم النظير على يبس وفرط ظاهرية في الفروع لا في الأصول»[26] نستنتج إذا أنها ظاهرية حددت سلطة الرأي في الفروع ثورة على التلاعب بالأحكام خدمة لمصلحة البعض فكان هذا مبررا قويا إذن لأن يجد هذه المثقف ضالته عند دعوة تطالب بالوقوف عند ظاهر النصوص وموافقة الأسماء لمسمياتها صونا للشريعة من هذا التلاعب، إن التقدم في تمييز هذه الظاهرية يقوى اعتقادنا أنها أكبر من أن تختزل فيما أريد لها لاحقا من أن تكون عنوانا للتحجر وآية لمن يبرع في قبر العقل والتفكير والتي طالت بعض أتباعها في أزمنة لاحقة فأساءت للشريعة من حيث تعتقد أنها تحميها « ليست الظاهرية مذهبا سطحيا متساهلا، بل هي مذهب يقدم الإجراءات اللازمة وفق رؤية معينة لسبرغور الحقيقة بعمق الاستدلال والنص الذي يمثل عندها بنية لسانية متكاملة قابلة للتفسير بكل شفافية»[27]، إذن إنها ظاهرية مؤسسة تأسيسا عقليا حاربت الجمود بقدر حربها على التقليد وهذا ما طبقة ابن حزم على نفسه بالنسبة للمذهب فقد خالف فيه مؤسسه في أكثر من موضع وخصص فصولا لتجريم ذلك وإلحاق صاحبه بالعصاة «أما من قلد دون النبي (ص)، فإن صادف أمر النبي(ص) فهو عاص الله تعالى، آثم بتقليده، ولا سلامة ولا أجر له على موافقته للحق وأن أخطأ فيه أثم إثمين، إثم تقليده وإثم خلافه للحق، ولا أجر له البتة »[28] إن هذه الرؤية للحزمية باعتبارها توجها تجديديا تبنتها العديد من الدراسات المعاصرة التي حاولت تصحيح تبعات تشويه حقيقة مضامينها ونبل غاياتها.

والذي كرسته مقدمة ابن خلدون في حكمها الذي ادخل ابن حزم في فلك ظاهرية منحرفة «فعلا يرتبط ابن حزم في مجال الفقه بالمذهب الظاهري الذي أسسه داود وابنه، غير انه حتى في هذا المجال نفسه تبدو ظاهرية فقيه قرطبة ذات طابع خاص تماما، إنها تصدر عن رؤية شمولية للعقيدة والشريعة، رؤية تستلهم المنطق والعلوم الطبيعية والفلسفة»[29] إنه فكر تجاوزي وثورة على إسقاط يحفظ للشيخ سلطته، على الوقائع المتشابهة، إن هذا الفكر قد أقصي من خلال نظرة تجزيئية لمنطلقاته تجاوزت اكتشاف أبعاد هذه الخصوصية[30] إذن فهي ظاهرية متميزة، ليست ساكنة ولا جامدة لكن هوس الاستمرار والاتصال كثيرا ما يربطها بسابقتها المشرقية، إنها ظاهرية تستلهم المنهج وتنفلت من أسر مذهبية مغلقة. إن الدعوة لهذه القراءة ستكون شعارا اتخذه ابن حزم في دروسه، وفي مؤلفاته وفي مناظراته، لقد كان لسان حاله دوما يصدح بهذه الدعوة: «اعلموا أن دين الله تعالى ظاهر لا باطن فيه وجهر لا سر تحته كله برهان لا مسامحة فيه واتهموا كل من يدعوا أن يتبع بلا برهان، وكل من أدعى للديانة سرا وباطنا» واضح إذن أن المنهج الذي رسمه ابن حزم لنفسه يترجم روحا نقدية عالية فهو في منهجه الظاهري لم يكن مقلد لأحد، بل جاءت أراؤه تعبيرا عن رؤية حزمية خالصة في شتى المسائل.

خلاصة :

ما يستنتج في الأخير عبر هذه الفصل، أن الفكر الحزمى لا ينفصل عن الزمن الأندلسي، عبر فتاراته التي عرفت تقلبا والتي كان فقيه الأندلس عليها شاهدا، انه فكر تماهى مع راهنيته بكثير من الوفاء، عبر انتماء أرستقراطي تفتح عليه مفكرنا بين قصور الأندلس إلى خروج اضطراري من قرطبة متنقلا بين الحواضر إلى صفوف جيوش محاولا التغيير فلم يفلح...وازدادت الأحوال سوءا والمكائد شدة وتآمر

الأقارب والأباعد... فلابد إذن من حل أعمق يغير فيه الرجل إستراتجية الدفاع ويشخص فيه الحال بسبل أفضل وطرق أوضح، انه سلاح القلم وانخراط في التأليف، عبر هذه المسيرة كان ابن حزم يفتش عن ذاته بين المذاهب الفقيه بروح نقدية عالية واستقلالية في الشخصية فريدة لم يخش عبرها لومة لائم، من انتماء مالكي إلى اختيار للشافعية مذهبا على اعتبار أن هذه القناعة الثانية تحد من سلطة توسيع الرأي التي استغلت في تجويز فتاوى تخدم مصالح الأمراء بدعم بعض الفقهاء، لكن سرعان ما سيجد ابن حزم نفسه في الظاهرية فكان أقوى ممثل لها بالأندلس، ووفاءا لروحه النقدية ولرفضه للتقليد سيتبنى المنهج لا المذهب ولا يجد حرجا في مخالفة مؤسسه عبر رؤية ظاهرية سيفكك الكثير من المسلمات التي تعارف عليها مفكرو عصره....كان في العمق مجددا، ثائرا، قال لا بطريقته ... حينما خضع غيره مبررين مشروعية تصرفات الأمراء وتوسع أطماعهم « فضاق به فقهاء القيروان، مثلما ضاق به فقهاء الأندلس، تنقل ابن حزم بين قرطبة والمرية وبالنسيا وميورقة، يناظر ويجادل، يعاند ويعارض، المسلمين وغير المسلمين عاندا الملوك والأمراء ولاء لبني أمية، وناظر الأشاعرة والفقهاء التزاما بالظاهرية، وردا على اليهود والنصارى تمسكا بالإسلام"[31]

إن القراءة السطحية الاختزالية لفكر ابن حزم قدمته ممثلا لظاهرية لا تختلف عن نظيرتها المشرقية، فلا غرو أن يكون بذلك زائعا، منحرفا عن نهج الأئمة الكبار، متمردا وقادحا فيما تعارف عليه المسلمون والواقع "أن فكر ابن حزم قد تعرض لسوء فهم وقصور من غالبية من عالجوه قديما وحديثا بسبب نكهته اللامألوفة للاذعة، ولأن جهده العظيم لم يتوفر له جهدا يوازيه ويواكبه ليمكن من الإحاطة بما فيه من أصالة وعمق وشمول»[32] غير أن الرؤية النسقية الشاملة لهذا الفكر من خلال تتبع بناه الفكرية كفيلة بأن تزيح عن فهمنا هذا الحكم لا سميا حينما يكون مناصرا لتفعيل الاشتغال بالمنطق وتحكيم العقل في زمن كان الاشتغال والدعوة للمنطق إثما يتم التخلص من مؤلفاتها أمام مرأى العامة ومباركة الحكام الذين يقدمون على ذلك تقربا للرعية وتضحية بالفكر

الهوامش :

(1)-راغب السرجاني، قصة الأندلس من الفتح إلى السقوط، مؤسسة أقرأ، ط1، القاهرة، 2011 ، ص10.

*الولاية بدأت بالفتح (92هـ-711م) وانتهت بإمارة عبد الرحمن الداخل (198هـ-755م) وأما عهد الإمارة فبدأت سنة 138 وانتهت 315هـ-927هـ أما الخلافة الأموية فبدأت 315هـ-927) وانتهت (422هـ-1031م).

(2)-حسان محمد حسان، ابن حزم الأندلسي عصره ومنهجه وفكرة التربوي، دار الفكر العربي (د.ط) القاهرة (د.س)،ص24.

(3)- محمد أيت حمو، فضاءات الفكر في المغرب الإسلامي،دار الفارابي، ط1، بيروت ، 1991، ص32.

* تولي رئاسة الشرطة وخزانة الدولة في عهد المستنصر بالله واستطاع بذكائه وحنكته أن يصل إلى سدة الحكم في الأندلس فأخذ الوصايا وأصبح المتصرف في كل شؤون الدولة ولقب نفسه بالملك المنصور.

(4)- صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، تحقيق حياة بوعلوان، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1، بيروت، 1985،ص111.

(5)- راغب السرجاني، قصة الأندلس من الفتح إلى السقوط، مؤسسة اقرأ، ط1، القاهرة 2011،، ص293.

* استحالت الأندلس بعد أن كانت كتلة واحدة إلى توجه كل حاكم إلى بناء دويلة صغيرة على أملاكه ومقاطعاته ويؤسس لأسرة حاكمة من أهله وقد بلغت هذه الأسرة الحاكمة أكثر من عشرين أسرة أهمها:

أ- دولة بني عباد بقرطبة (422هـ- 449هـ) ب- بني حمود بغرناطة (403هـ - 483هـ) ج- بني هود بطليطلة (400هـ-478هـ) د- بنو الأفطس في بطليوس (413هـ-487هـ).

(6)- سالم يافوت، ابن حزم والفكر الفلسفي بالمغرب والأندلس، المركز الثقافي العربي،ط1، الدار البيضاء، 1986، ص29.

(7)-ابن حزم، رسالة التلخيص لوجوه التخليص، ضمن رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق إحسان عباس، دار العروبة، (د.ط)، القاهرة، 1960 ص173.

(8)- عبد الحليم عويس، ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري، الزهراء للإعلام العربي، ط2، القاهرة، 1988، ص41.

(9)- حسان محمد حسان، دار الفكر العربي (د.ط) القاهرة (د.س) ، ص50.

(10) Encyclopédie de l'islam, nouvelle édition réimpression anastatique, leyde e.g brill. Paris 1975. ,P814.

(11) -صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، تحقيق حياة بوعلوان، دار الطليعة للطباعة والنشر،ط1،بيروت،2001ص181

(12)- ابن حزم، طوق الحمامة، ضمن رسائل ابن حزم الأندلسي ، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1980،ص104.

(13)- المصدر نفسه، ص25.

*تبرر بعض الدراسات هذا الولاء إلى أن جده الأقصى في الإسلام هو يازيد كان فارسيا، أصبح مولى لأبي سفيان يحدد صاعد الأندلس نسبه أنه أبو محمد علي بن أحمد حزم بن غالب بن صالح بن معداب بن سفيان بن يازيد الفارسي مولى يازيد بن أبي سفيان. على الرغم من نسبة بعض المستشرقين أصله إلى الأسبان.

(14)- طه الحاجري، ابن حزم صورة أندلسية، دار النهضة العربية، ط1، دمشق، 1982 ص99.

(15)- المصدر نفسه، ص8.

(16)- ابن حزم ، الأخلاق والسير في مداواة النفس،ضمن رسائل ابن حزم، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت 1980، ص5.

(17)–ابن بسام، الذخيرة، دار الفكر للنشر والتوزيع (د.ط)، عمان ، 1984، ص141- 142.

(18)–محمد عابد الجابري التراث والحداثة، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، 1991ص128.

(19)–ابن خلدون، المرجع السابق، ص413.

(20)–مهدى، فضل الله الاجتهاد والمنطق الفقهي في الإسلام،دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1، بيروت، 1987 ص12.

(21)–على حسب الله، أصول التشريع الإسلامي،دار المعارف، ط1، القاهرة، 1959 ص232.

(22)–نذير بوصبع ، بنية المنهج وفلسفته عند الإمام ابن حزم، دار هومة ، ط1، الجزائر،2004 ص67.

(23)– ابن حزم الإحكام في اصول الأحكام، تقديم إحسان عباس، دار الآفاق الجديدة، ط1،بيروت،1980 ص02.

*كان لابن حزم ابن عم يقال له عبد الوهاب بن العلاء ابن سعيد بن حزم وكان بينهما منافسة ومخالفة فوقف على شيء من كتب ابن حزم من فكتب إليه رسالة بليغة يعيب ذلك المؤلف رد ابن حزم: سمعت وأطعت لقول الله تعالى: "أعرض عن الجاهلين " ونفذت قول رسول الله (ص) صل من قطعك وأعف عمن ظلمك" تأكيدا لعمله بالكتاب والسنة.

(24)–حسان محمد حسان، ابن حزم الاندلسي ، دار الفكر العربي(د.ط)، القاهرة (د.س)، ص91.

(25)–ابن حزم ، النبذ في أصول الفقه الظاهري، دار ابن حزم، ط2، بيروت،1999،ص91.

–مدين الحسن الحجوي الثعالبي، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، إدارة المعارف، ط1، الرباط ، 1920. ص09.

(26)–الذهبي، سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة (د.ط)، بيروت، 2011، ص186.

(27)– نعمان بوقرة، النظرية اللسانية والبيانية عند ابن حزم ، دار هومة ، ط1، الجزائر،2004ص14.

(28)–ابن حزم، النبذ في أصول الفقه الظاهري، دار ابن حزم، ط2، بيروت، 1999، ص120.

(29) نعمان بوقرة، النظرية اللسانية والبيانية عند ابن حزم، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ط1، دمشق، 2004 ص14.

(30) ابن حزم ، الفصل في الممل والأهواء والنحل، دار الفكر، (د.ط)، بيروت 1980.

(31)–حسان محمد حسان، ابن حزم الأندلس، عصره ومنهجه وفكره التربوي، دار الفكر العربي، (د.ط) القاهرة (د.س) ص52.

(32) أنور خالد الزغبي، ظاهرية ابن حزم الأندلسي،المعهد العالمي للفكر، (د.ط)، عمان 1995، ص09.